الأستاذة : سميرة بوجرة، جامعة تيزيوزو

## إسهام النقد اللغوي القديم في نشأة النقد الأدبي القديم عند العرب

إن ثقافة الناقد تختلف عن ثقافة الأديب، فالنقد يختلف عن الإبداع " لأن النقد ينتمي إلى الإديولوجيات، و الثقافات و الاتجهات الفكرية ، و النظريات المعرفية على اختلافها، فالكتابة أدب قوامه الخيال، و النقد كتابة قوامها المعرفة"(1).وبهذا فالنقد في حاجة إلى معارف ينطلق منها ليقارب النص الإبداعي، إضافة إلى أنّ " الناقد المثقف : هو الذي وقف على قدر موسع من المعرفة، ليكون له عونا في رصد قيمة الأعمال الأدبية

و تحليلها، فبهذه الحصيلة الثقافية يضمن سلامة أحكامه و صوابها، و بها يكتسب عمق النظرة، و القدرة على النفاذ إلى ما وراء الأشياء."(2).

قد يكون للتخصص في حقل معرفي بحد ذاته، و للبناء الثقافي و المعرفي لكل عصر سلطة على ثقافة الناقد توجهه و تطغى على ممارسته النقدية.

فهل سيطرت على فكر الناقد العربي القديم توجهات معينة أسهمت في نشأة النقد الأدبي عند العرب قديما ؟

تنطلق كل قراءة لنص إبداعي ما من خلفيات معرفية أو فلسفية، و انطلق النقد العربي القديم من الخلفية اللغوية،لكن كيف أسهمت المباحث اللّغوبة القديمة في نشأة النقد الأدبي عند العرب قديما؟.

I ـــ الناقد القديم والمؤثرات الثقافية

شكل نزول القرآن منعرجًا حاسمًا في حياة العربي،على جميع المستويات، و كان في الوقت نفسه الشعر ديوان العربي و منتهى علمه به يأخذ و إليه يصير(3)، و" قلما نجد في تاريخ الإنسانية الطويل قوما اهتمو بأدبهم، اهتمام العرب بشعرهم "(4)، فمع ظهور الإسلام، فوجئ البدوي بأفكار و قيم و رُؤى ، لم يكن يعلم بها و في حركية هذا التحول الارتقائي، اختلط العرب بالأمم

الأخرى، نشأ عنه ظهور جماعة من اللّغويين في القرن الثاني للهجرة شعروا بخطرهذا الامتزاج، لما يُورثه من لحن و بعد عن معجم البادية،

و ما يشكله من خطر على النص القرآني، فهاجرت هذه الجماعات إلى الأعرابو شيوخ الفصاحة وقبائلهم لحصر اللغة العربية النقية والفصيحة، وشكل الشعر معظم الموروث اللّغوي العربي.

اهتم اللّغويون بالشعر و روايته، و اتُّخذ كمرجع لفهم أسرار النص القرآني و تفسيره، و من هن تولدت الصلة الوثيقة بين اللغة و الدين"، و لعلّ خير ما يساعدنا غلى فهم السبب الذي يكمن وراء التمسك بالأصل اللّغوي، و ليس من شك أن هذا السبب يعود إلى الربط بين اللّغة و الدين ربطًا جوهريًا."(5)، فكان الدافع الديني أقوى الدوافع التي أنتجت النقد اللّغوي.

1ـ الناقدالأدبي القديم و العلوم اللّغوية

فرضت البادية أنماطًا اجتماعية و اقتصادية و معرفية محددة تبلورت جميعها في هيمنة الثقافة الشفاهية على السياقات القائمة، كان الإنسان الجاهلي مستسلمًا للطبيعة، لا يملك أدوات التغير و الخرق سوى أن ينظم أبياتًا متفرقات تفرق حبات الرمل في الصحراء الشاسعة، يضبط بها إحساساته و انفعلاته في أوقات حلّه و ترحاله، فلذلك شكل الشعر معظم التراث الأدبي العربي، ولأن الشعر عصارة الفكر الشفوي الجاهلي، لم يصلنا مكتوبا بل وصلنا مدونا في الذاكرة عبر الرواية و الحفظ(6).

يُرجع الجاحظ صمود الشعر أمام ضعف الذاكرة و النسيان إلى خصائصه الشكلية، " فهو للحفظ أسرع، و الأذان إليه أَنشط، وهو أحق بالتقيد و قلّة التفلت"(7)، و الهدف من رواية الشعر الجاهلي هو البحث عن معيار للّغة العربية الفصيحة التي بقيت بعيدة عن اللّحن لبعدها عن الحضارة،وهذا ما أدى إلى ظهور العصبية في صفوف علماء اللّغة،وهو تعصب للفصاحة العربية وللشعر الجاهلي وللعنصر العربي، مقابل العنصر المولد و المحدث و شعره.

لهذا انصبّ الاهتمام على جمع الشعر و روايته، و الرواية هي نقل ما نطقت به العرب بالذهاب إليهم أو تلقيهم.

أضف علماء القرن الثاني طابع القداسة على النصوص المروية، و كان هدفهم " محاولة التطابق مع نموذج موجود بكل حذافيره ... و تحقيق النصوص و الاحتفاظ بها كما هي".

و في ظل نشاط حركة الرواية اللغوية انقسم العلماء إلى مذهبين : البصري و الكوفي، ومنهم من اعتمد على السماع و رفض القياس في اللّغة، و كان الأصمعي يمثل هذا الاتجاه(8)، و وُصف أصحاب هذا الاتجاه في اللّغة كورثة للمُعنعنين، و في المقابل نادت طائفة بالقياس اللّغوي و حجتهم في ذلك أن القياس اللّغوي كالقياس الفقهي.

جعل اللّغويون لرواية اللّغة ضوابط زمنية و مكانية، فحددوا زمن الاحتجاج بداية من العصر الجاهلي حتى منتصف القرن الثاني للهجرة بالنسبة إلى عرب الأمصار، و إلى أواخر القرن الرابع للهجرة بالنسبة إلى عرب البوادي (9)،و حدد الفضاء الجغرافي لرواية اللّغة في قبائل مخصوصة ذكرها الفارابي في كتاب الحروف(10)، لم يرق هذا التحديد الزمني و الجغرافي الشعراء المحدثين وولّد الخصومة بين المحدث و القديم،

و في خضم هذه الخصومات كانت للغويين أراء نقدية في الشعر و الشعراء،و نقلت المصادر التراثية الكثير منها.

كان التقعيد اللغوي و التأصيل النحوي و الاطلاع على الشعر، بمثابة بناء لشخصية الناقد اللّغوي القديم و إثراء لثقافته، و جعل من هذا الرصيد اللغوي أنموذجا و متنا مرجعيا مغلق و نهائي للعملية الإبداعية، و عن طريق هذا الأنموذج أقصي الشعراء اللاّحقين من قائمة الفحول(11) .

لم يكن النقد اللّغوي مبحثا مستقلا عن العلوم اللّغوية والنحوية والفقهية، لكن تجلّت الممارسة النقدية في تناول النقاد اللغويين لعديد من القضايا المتصلة مباشرة بالنقد الأدبي،من بينها قضية الانتحال، السرقات الشعرية، الموازنة بين الشعراء والنصوص الشعرية،فصاحة و بلاغة المفردات والتراكيب، الصور الشعرية و قضايا نقدية متعددة.

## II ـ النقد اللغوي القديم و الشعر العربي

دارت الحركة النقدية اللغوية حول النصوص الشعرية و الشعراء، و لا يمكن حصر جميع الأراء النقدية للغويين القدامى في ميدان الشعر، فلم يقتصر النقد اللغوي على جيل واحد من العلماء، بل نجد أن جلّ علماء اللغة و النحو كانت لهم اجتهدات في هذا الميدان، لكن رغم هذا فقد وجد منهم من تبحر في النقد أكثر من غيره، منهم الأصمعي الذي أكتفي بالحديث عنه كأنموذج للناقد اللغوي القديم، من خلال كتابه ( فحولة الشعراء)، وهو مصنف أقرب إلى النقد من علم اللّغة، إضافة إلى آرائه المبثوثة في مصادر التراث العربي القديم.

ـ الأصمعي / بين علم اللغة و النقد

يندرج كتاب الأصمعي ( فحولة الشعراء) ضمن النقد التطبيقي، فهو تعامل مع النصوص الشعرية تعاملا مباشرا عكس التوجهات النقدية التي سادت العصر" فالنقد التطبيقي هو أحد المشارب التي يمكن عن طريقها إثراء النظرية النقدية أو توسيع حدود التراث النقدي"(12)، ويتعلق النقد التطبقي عند النقاد القدامى البيت الشعري المفرد دون أن يشمل قصائد كاملة، ويتناول النقد التطبقي اللفظ و المعنى، الصورة، الإيقاع الموسيقي، الأغراض الشعرية، بناء القصيدة و منهجها...،لكن الناقد اللغوي القديم لم يستطيع تناول كل هذه العناصر في القصيدة الواحدة، لذلك اتّسم النقد الربي القديم بالجزئية.

يعد كتاب فحولة الشعراء للأصمعي إعادة صياغة لآراء و أفكار النقاد اللغويين في القرن الثاني للهجرة، حيث اعتمد الأصمعي في تصنيفه للشعراء في طبقات على مبدأ الفحولة، فالفحل لدى الأصمعي من كانت "له مزيّة على غيره كمزيّة الفحل على الحقاق"(13)، وللفحولة معايير يمكن إيجازها فيمايلي:

ـ الفصل في بين الدين و الشعرأو الأخلاق، لأن طريق شعر الفحول وصف الدّيار و الهجاء و الخمر و التشبيب بالنساء(14).

ـــ غلبة صفة الشعر على الشاعر، و ذلك بالإنقطاع الكامل لقول الشعر و نظمه، فحين سُئل الأصمعي عن عروة بن الوردو حاتم الطائي، نفى عنهم صفة الفحولة و أثبت لهم صفات أخرى كالفروسية و الكرم(15).

ـــ الشاعر الفحل يروي الأشعار و أخبار العرب وأيامهاوأنسابها،ويطّلع على علوم اللغة والنحو والعروض العربية،فالثقافة الواسعة شرط ضروري للفحولة،وروى المرزباني نماذج كثيرة من النقد الموجه للشعراء في هذا الصدد(16)

ـــ لبدّ أن يكون للشاعر عدد من القصائد كحد أدنى يؤهله للالتحاق بصف الشعراء الفحول، لذلك أدى الكم الشعري إلى إقصاء بعض الشعراء(17).

ـــ ارتبطت الفحولة الشعرية بالعامل الزمني و الحضاري، فالفحول هم من الشعراء الجاهليين، و ليس كل الشعراء الجاهليين فحول، فالأصمعي رفض تصنيف الشعراء الإسلاميين و المحدثين، لكنه أبدى أراءا نقدية فيهم، فذا الرّمة مثلا، ليس بحجة لدى الأصمعي لأنه اختلط بالحضر، ففسدت لغته(18) .

ـــ تتعلق جودة الشعر عند الفحول بجودة الطبع، فهو الذي يتحكم في الخصائص الفنية في شعر الفحول، لذلك ينفر الأصمعي من الصنعة و من شعراء الصنعة في الجاهلية كالحطيئة و زهير بن أبي سلمى(19)، و الطبع قرين الإلهام و العادة و البداوةو الفصاحة و الإيجاز و البعد عن الغموض، والطبع وليد الثقافة الشفاهية التي تتبنى الجزئية في تذوق المسموع و الانفعال به .أما الصنعة، فهي قرينة التنقيح و كد القريحة و الحرفة

و التكلف، و المصنوع لا خير فيه لدى ناقد كالأصمعي(20).

تطرق الأصمعي إلى نقد جزئيات القصيدة،فحرص على سلامة المعنى و صحة الألفاظ واستقامتها، لذلك أعاب على امرىء القيس قوله:

وَأركب في الّروع خيفانة  كسا وجهها سعف منتشرٌ

و قال أن الشّعر إذا غطى الوجه لم تكن الفرس كريمة (21)، و رفض قول بعضهم : فلان زوجة فلان، بل هي زوج، كما جاء عن العرب الفصحاء(22).

حرص الأصمعي على احترام القاعدة النحوية في الشعر، و خطأ امرؤ القيس في قوله" بين الدخول فحومل"، فقد رواه الأصمعي " بين الدخول و حومل"، لأنه لا يقال" رأيتك بين زبد فعمرو"، و نتيجة لحرصه على السلامة اللغوية و النحوية عرف الأصمعي بالتصحيف، و هو تغير رواية الشواهد الشعرية، وقد غيّر قول جرير :

فيالك يوما خيره قبل شرّه  تغيّب وشيه و أقصر عاذله

فرواه الأصمعي : فيالك يوما خيرة دون شرّه.(23). تحدث الأصمعي عن السرقات الشعرية ، من خلال إشارته إلى أن ثُلث شعر الفرزدق مسروق، و تحدث كذلك عن سرقات النابغة(24)، وتطرق إلى بعض أنواعها التي ذكرها ابن رشيق في العمدة لاحقا، و كان يرى في السرقة عيبا مشينا يُوصف به الشاعر.

انصرف النقاد اللغويين إلى العناية بالتشبيه و الاستعارة و الكناية، لكن عنايتهم بالتشبيه كانت أكبر من غيره من الصور، فرفعوا من شأنه، وتحدثوا عن التشبيهات العقم التيانفرد بها أصحابها، وكعينة منها، قول امرىء القيس:

كأنّ قلوب الطير رطبًا و يابسًا  لدى وكرها العنّاب و الحشف البالي

و استحسن الأصمعي هذا التشبيه، و كل التشبيه الذي يجمع بين صورتين (25).

و أشير في الأخير قضية نقدية عرف بها الأصمعي و هي قضية المختارات الشعرية، فهذه الأخيرة عرفها النقد التراثي بوجهين، الوجه الأول، يقتصر على اختيار الأبيات الشعرية المفردة، كأهجى بيت، و أغزل بيت ، و أوجز بيت قالته العرب، و الوجه الآخر هو المختارات الشعرية المنظمة، كالمفضليات للمفضّل الظبيالكوفي، و الوحشيات لأبي تمام، و الأصمعيات للأصمعي. وتعد هذه المختارات الشعرية صدى للذوق هؤلاء

و خلاصة اطّلاعهم و ثقافتهم الشعرية الواسعة، لكنها تفتق إلى المنهجية و التعليل، كما هو الحال لدى الأصمعي(26). هذه بصفة مجملة صورة عن الناقد اللغوي في القرن الثاني للهجرة، في محاولتهم لوضع أنموذج قار للعملية الإبداعية، فالفحولة تقاس بمدى مقدرة الشاعر على الإعادة الجيدة لهذا الأنموذج، فالفحل بالتحديد هو الذي يُبرهن على تملكه للأنموذج و تمكنه منه.(27) .

لا يمكن دراسة تاريخ النقد الأدبي عند العرب بمعزل عن المؤثرعرات الخارجية التي أسهمت في تكوينه، و لم يكن النقد اللّغوي الوحيد الذي أسهم في تكوينه، فقد اطّلع العرب على الثقافات الأجنبية، منها البونانية، فلا أحد ينكر اسهامات ابن سينا و الفارابي و آخرين في بلورة مباحث النقد االأدبي القديم عند العرب.

هوامش المداخلة

(1) ــ عبد الملك مرتاض، في نظرية النقد متابعة لأهم المدارس النقدية المعاصرة و رصد لنظريتها، دار هومة، الجزائر2002،ص 30.

(2)ــ سنية أحمد محمد، النقد عند اللغويين في القرن الثاني، دار الرسالة، يغداد1977، ص 19.

(3)ــ ينظر: عبد المالك بن قريب، فحولة الشعراء،تحقيق عبد المنعم خفاجي و طه محمد الزيني، المطبعة المنيرية،ط1، القاهرة1953،ص18.

(4)ــ حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، كلية الآداب منوبة،ط2،تونس1994،ص22.

(5)ــ علي أحمد سعيد أدونيس، الثابت و المتحول الكتاب الثاني تأصيل الأصول، دار العودة،ط1، بيروت1977،ص151.

(6)ــ ينظر: أدونيس، الشعرية العربية، دار الآداب،ط2، بيروت1989، ص5.

(7)ــ أبو عمرو بن بحر الجاحظ، البيان ةو التبين،ج1، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت1948،ص287.

(8)ــ ينظر :عبد الرحمن جلال الدين السيوطر، المزهر في علوم اللغة و أنواعها،ج1،تحقيق محمد جاد المولى و آخرون، دار الجيل،بيروت(د ت)، ص249،248. (9)ــ ينظر : بديع إميل يعقوب، المعجم المفصل في شواهد النحو، المجلد الأول، دار الكتب العلمية،ط2، بيروت1999،ص 8،7.

(10)ــ ينظر : أبو نصر الفارابي، كتاب الحروف، تحقيق محسن المهدي، دار الشرق،بيروت1970،ص147.

(11)ــ ينظر : جمال الدين بن الشيخ، الشعرية العربية، دار توبقال،ط1،الدار البيضاء1996،ص18.

(12)ـــ ينظر : أحمد صبرة، شرح المرزوقي النظرية و الإجراءات، دار المعرفة الجامعية،ط1، الإسكندرية2000،ص10.

(13)ـــ الأصمعي، ص 9.

(14)ـــ ينظر : أبو عبيد الله بن عمران بن موسى المرزباني، الموشح، تحقيق محمد علي البجاوي، دار الفكر العربي، القاهرة1965،ص79.

(15) ـــ ينظر : الأصمعي، ص9 .

(16)ـــ ينظر : المرزباني، ص57.

(17)ـــ ينظر: الأصمعي،ص15.

(18)ـــ ينظر: المرزباني،ص236.

(19)ـــ ينظر: السيوطي،ج2،،ص236. السيوطي،ج2،،ص498.

(20)ـــ ينظر: مصطفى درواش، خطاب الطبع و الصنعة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق2002،ص 49،48،5.

(21)ـــ ينظر: المرزباني، ص 45،44.

(22)ـــ ينظر: المرجع نفسه،ص236.

(23)ـــ ينظر: المرجع نفسه،ص172.

(24)ـــ ينظر: المرجع نفسه،ص147،146.

(25)ـــ ينظر: سنية أحمد محمد،ص267،266.

(26)ـــ ينظر: المرجع نفسه،ص 300ـــ308.

(27)ـــ ينظر: جمال الدين بن الشيخ،ص18.